

الفصل الرابع

مقومات المجتمع، الجنس

سنعالج في هذا الكتاب ثلاث نظريات في موضوع مقومات المجتمع وهي : نظرية الجنس (Race) ، ونظرية البيئة ، ونظرية الاقتصاد •

اما نظرية الجنس (أو العنصرية) ، فانها تذهب الى القول بان : وحدة الجنس أساس الحياة الاجتماعية ، وأن كل عنصر يقوم مجتمعه بمقتضى طباعه وخصائصه الموروثة ؛ بل إن غلاتها يذهبون الى أبعد من ذلك ، فيزعمون أن المجتمع لا وجود له وانما الموجود هو وحدة الجنس التي تكافح في سبيل البقاء ، وان لكل مجتمع حضارة خاصة ، هي وليدة المواهب والخصائص الفطرية التي يتميز بها كل جنس عن غيره ؛ وأن خير سبيل لحماية الجنس وصيانة حضارته وضمان تقدمه ، المحافظة

على نقاوة دمه ؟ وأن أعظم ما يؤدي بالجنس الى الاضمحلال ، اختلاطه
باجناس غريبة عنه . وأغلب الآخذين بهذه النظرية ، يتهمون
بها الى تمحيد العنصر الذى ينتمون اليه ، باعتبار أنه موجد الحضارة
والجدير بحمل لواء التقدم والأخذ بقياد الاجناس الأخرى والسيطرة
على العالم . واليك مقتبسات من أقوالهم نوردها على سبيل الايضاح (١) :
يقول « ماديسن كرانى » (Madison Grant) وهو من
الامريكيين ، « علينا أن نوقن أولا ، ان الجنس النقى المحض ، باعتباره
قوام التركيب العضوي والنفسي فى الانسان ، والذى لا صلة له بالقومية
واللغة ، هو مبعث كل مظاهر الحياة فى المجتمع الحديث كما كان
منذ الأزل . ان نواميس الطبيعة تسرى فى شؤون الانسان ، بعين الدقة
التي تسرى بها فى عالم الجماد . فقد ثبت لدينا ، منذ أن أوضحت
قوانين « ماندل » (Gregor Mendel) فى الوراثة ، أن خصائص
الجسم تنتقل بالوراثة حسب قواعد ثابتة ، وأن السجاياء المتألفة والمجتمعة
فى الأجناس النقية ، قد يجتمع بعضها بما يخالفه ، بطول الاتصال بين
أجناس متباينة ، فيخرج تراكيب غير متسقة ، بحيث ترى ، مثلا ،
أمراء سمراء مديدة القامة أو شقراء قصيرة ، أو أن ترى عيوننا
زرقاوات مع شعر غامق اللون ، أو عيوننا نجلاوات مع شعر أشقر . . .
(الى أن يقول) ان الطبيعة لا يعينها الفرد وما تحدثه البيئة فيه من

(١) وهى مقتبسة عن Brady .

تغير ، وانما الوراثة هي الوسط الوحيد الذى تسرى فيه
نواميسها (٢) » .

ويقول « كروس » (W.Cross) أحد كتاب الجرمان النازيين :
« ان علمي الحياة والطب ، قد أعلمانا منذ ثلاثين سنة ، أن أثر الوراثة ،
في خصائص الانسان الجسمة والروحية ، أعظم بكثير من مجموع مؤثرات
البيئة ، سواء منها ما يتعلق بالمعيشة أو التربية الفكرية أو البدنية ؛ لأن
هذه المؤثرات الخارجية يتوقف فعلها كلها على الخصائص الموروثة
الملائمة لها ؛ فليس فى استطاعة أحد أن يبدع صفة موروثة لمن لا
يملكها ، أو أن يجتثها ممن يتصف بها . » .

وجاء فى إحدى النشرات النازية (Why The Aryan Paragraph)
« ان الفكر والشعور لا يمكن أن يتجاوزا مطلقا ، حدود استعداد
الجنس الفطرى . » .

وقال « فريك » وكان وزير داخلية الماينة النازية
« ان اختلاط الأجناس ، وما ينجم عنه من انحطاطها ، هو السبب
الوحيد فى اندثار الحضارات القديمة ، فالشعوب لا تموت بخسراتها
المعارك ، وانما يغلبها الاضمحلال عندما تفقد قابلية المقاومة الكامنة فى
الدم النقي . وكل ما فى العالم ، مما لا يمت بصلة الى نقاوة الجنس ،

(٢) راجع كتابه : (The Passing Of The Great Race)

انما هو خسيس وتافه • والتاريخ ليس الا ظاهرة الكفاح بين الأجناس
فى سبيل البقاء • • »

وقال آخر من كتاب النازية : « ان الدم مقوم البدن ،
وينبوع الروح فى الجنس ؛ به يخلد تراث الأجداد ، وفيه تكمن
خصائص الجنس ، ومنه تخرج صفات الرجال ، وبه تقرر مقدراتهم •
ان الدم النقى هو الدافع الخفى ، وهو معين الحياة الذى يخرج به
الانسان الى فضاء النور والروح والعرفان • »

والفكرة التى تتطوى عليها نظرية وحدة الجنس لست حديثة ،
وربما ترجع فى الأصل الى التمايز ونزعة التفاخر القبلى ، وقد تجلت
فى آراء « أرسطو » الذى قال ان الفروق بين الأحرار (Freemen)
والعبيد (Slaves) ، ترجع الى الطبيعة التى أعدت بعض الامم الى
السيادة وبعضها الى العبودية ، فألقت على الأولى أعباء الحكم وخصت
الثانية بنعمة الخضوع • وقال ان المنازعات العنصرية ليست ظواهر
تاريخية أو اجتماعية وانما مرجعها مشئة الله أو حكم الطبيعة ؛ وأن
لا جدوى من محاولة احلال المساواة فى محل عدم المساواة بين
الأجناس بواسطة التربية أو بالمساعى الاجتماعية أو بطريق الثورات ،
وانما السبيل الوحيدة لتسوية المنازعات العنصرية هي سبيل التوافق
الطبعي الذى يتم باستسلام الامم السافلة ، لمصيرها المفروض عليها
بحكم القوانين الأزلية ، باعتبار أن التعصب العنصرى طبع متاصل فى

الانسان ولا سبيل الى تجنب المنازعات التى تنشأ عنه الا سبيل الرضوخ
لحكم القدر . وقد أورد « أرسطو » هذه الآراء معارضا بها رأي
السوفسطائيين الذين قالوا ان الفوارق بين الاحرار والعبيد لا أساس لها
فى الطبيعة ، وانما هي بدع اختلقها الانسان ؛ وان العبودية حال
فرضتها القوة ولهذا فانها لا تقوم على أساس من العدل .

ويرجع آخرون فكرة العنصرية الى عوامل تاريخية نشأت عن
هجرة الأقاليم واغتصابها بلاداً تقطنها أقوام أخرى ، وتأسيسها دولاً
تولت هي الحكم فيها وفرضت على سكانها الأصليين نظام العبودية .
وكان طبعياً أن تحتكر الأقاليم الغالبة لنفسها جميع أسباب الرفاهية
والتقدم فتحرم منها الأقاليم المغلوبة على أمرها وتسوقها الى السفالة
فتزدريها ؛ ومن ثم ترى نفسها وقد تحسنت شؤونها الاجتماعية وارتقت
أحوالها وكأنها أصبحت تمتاز بخصائص نفسية وعقلية عن تلك الأقاليم
المضطهدة التى هوت الى دركات التأخر واستقرت فى حضيض
العبودية . ويقوم كتابها ومفكروها فيصورون هذه الفوارق المصطنعة
بانها فوارق أصلية مرجعها مشيئة الله أو حكم الطبيعة ، ليجردوا
الأقاليم المغلوبة من ثقافتها بنفسها ويحملونها على الاستسلام لأحكام
الواقع باعتباره أمراً محتتماً لا مردّ له ، حتى ليزعمون أن العبودية فى
مصلحة الأقاليم المستعبدة التى هي عاجزة عن حكم نفسها وتسيير
شؤونها ، فلو ترك أمرها اليها لساءت حالها وصارت الى الفناء ، وأز

السيادة عبء ألقى على كاهل الأقوام المتفوقة وواجبها أن تقوم بهذا العبء فتؤدي رسالتها في الحياة .

وحاول بعض الكتاب والمفكرين ، منذ أواخر القرن الثامن عشر ، أن يفسر الطبقات الاجتماعية بأنها ترجع في الأصل الى التفوق العنصري . فارجع « بولينفيير » (Henri de Boulainvilliers) الأرستقراطية الفرنسيه باعتبارها الطبقة الحاكمة في فرنسه الى الفرنكيين « الجرمان ؛ وجمهور الفرنسيين الذين يؤلفون الطبقة المحكومة ، الى « الكلتيين » باعتبارهم سكان فرنسه الأصليين الذين غلبوا على أمرهم . وفسر « سييه » (Joseph Emmanuel Sieyes) (Abbe) ، في الكتيب الذى نشره عام ١٧٨٩ وعنوانه (Qu'est-ce que le tier-état) ، الثورة الفرنسية بأنها تعبر عن مسعى الطبقة المحكومة من سكان فرنسه الأصليين لطرد الفاتحين الفرنكيين الذين يؤلفون الطبقة الحاكمة واستعادة الحكم الذى اغتصبوه . وزعم « كوبينو » فى كتابه (des races Humaines) (Essai sur L'inégalité) الذى أصدره باربعة مجلدات بين عامي ١٨٥٣ و ١٨٥٥ ، أن الطبقات الحاكمة فى أوربة ترجع كلها الى « الفرنكيين » الجرمان ، وهو الجنس الممتاز الذى أنشأ الحضارة . وكان من أشد غلاة نظرية الجنس ، الكاتب الألمانى « تشامبرلين » (Houston Stewart Chamberlain) الذى حاول فى كتابه

(The Foundations of the Nineteenth Century) الذي نقل الى الانكليزية عام ١٩١٠ ، أن يشت بأن العنصر الجرمانى هو الذى أنشأ الحضارة الأوربية ؛ وأن انهيار الحضارات القديمة ، وخصوصاً حضارتي الاغريق والرومان ، إنما مرجعه امتزاج الأجناس التى أنشأت هذه الحضارات باجناس غريبة عنها . وقال أن مصير الحضارة الحاضرة منوط بمحافظة الجرمان على نقاوة عنصرهم . وقد قسم الأجناس الى مختارة (élite) منتمية بطبيعتها ووطيرة ومدمرة بطبيعتها ؛ واعتبر الجنس الجرمانى فى رأس قائمة الأجناس المختارة المنشئة واليهود والزنوج فى رأس قائمة الأجناس المدمرة . وانتهى الى القول بان من صالح الانسانية ومن مصلحة الأجناس الأخرى ، أن تكون السيادة فى العالم من نصيب الأرستقراطية الجرمانية المنشئة . وقد تبنت النازيه آراء « تشمبرلين » هذه وأتخذتها أساساً لسياستها العنصريه .

وهكذا ترى كيف تقوم الاستغلال فكرة التفوق العنصري ، وكيف سارت هذه الفكرة فى جميع أدوار التاريخ ، القديم والحديث ، فى ركاب التوسع والفتوح والاستعمار . ففي العهد القديم ، فى أدوار الزراعة البدائية ، كانت الأقوام التى تهيات لها أسباب الغلبة تغتصب البلدان ، فتختار الحبيب من ارضها ، وتترك القاحل منها للأصليين من السكان أو تفرض عليهم العبودية ، فتفرض عليهم من جراء ذلك

سفالات الفاقة والحرمان والجهالة . وفى العهد الحديث ، قام الاستعمار بمختلف أشكاله ووجوهه ، بما قامت به الفتوح وما فرضه التوسع من ظواهر الفوارق بين الشعوب ، حتى بدت هذه الفوارق وكأنها أصلية وطبيعية .

وفكرة التفوق العنصري والتمييز بين الأجناس ، وإن بلغ الغلو فيها الأوج فى عهد النازية ، التى استغلتها لاستئثار حتمى التوسع والاستعمار ، ولاشغال الشعب عن التبرم بما كان ينوء تحته من ويلات الاستغلال ، ولتوجيهه عن الصراع الطبقي الداخلى الى العدوان ، فانها تقوم اليوم ، بدرجات متفاوتة من القوة والشدة ، فى جميع البلدان الرأسمالية وفى جميع الأقطار التى يقوم النظام فيها على أساس الاستغلال . ففي أفريقية الجنوبية حيث تعيش أغلبية من الأفريقيين ، مستضعفين وفى ظل اضطهاد عنصري لا مثيل له ، تقوم فكرة التفوق العنصري بحكم القانون ، كما كان الحال فى ألمانيا النازية . وفى أميركة ، التى تعيش فيها أقلية كبيرة من الزنوج وأقليات أخرى من الصينيين واليابانيين والشعوب الآسيوية الأخرى ، تقوم فيها فكرة التفوق العنصري والتمييز بين الأجناس بحكم الواقع ، فترتكب باسمها فظائع تقشعر منها الأبدان من دون أن يجد التشريع الأميركي وسيلة لوقفها أو القضاء عليها . وهكذا الحال فى جميع البلدان ، تتناسب قوة هذه النزعة فيها مع درجة سعة المصالح الاستعمارية ومطامح التوسع

الاقتصادي وتباين وجوه الاستغلال واشتداد التناقض فى نظام
الاجتماع •

ولست هذه الفكرة فى ظل النظام الصناعى الرأسمالى مقصورة
على الرأسماليين فحسب ، وانما هى متصلة فى طبيعة النظام ، فهى
ليست وسيلة يلدجأ اليها عند الحاجة فقط وانما هى تغفل حتى فى
صفوف طبقة العمال وأفراد الطبقة الوسطى حيث تواجه جماعات
الطبقتين فى الأقليات الغريبة والمتأخرة منافساً قوياً بالنظر لانخفاض
أجور العمال من أفراد هذه الأقليات ؛ وبالنظر كذلك لانخفاض
مستوى معيشة هذه الأقليات وتقديرها على نفسها فى أسباب العيش •
ولقد بدت هذه الظواهر فى انكلترا ، وفى فجر الثورة الصناعية فيها ،
عندما كان العمال من الفرنسيين والهولنديين والبلجيكيين وغيرهم
يؤمنون بريطانية طلباً للرزق فيعرضون أنفسهم للعمل باجور أقل
من أجور العمال الانكليز • أما فى اميركة ، فلا ريب فى أن التفاوت
فى أسعار العمل وفى مستويات المعيشة والبذل تكوّن السبب
الرئيسى فى تغفل التعصب العنصرى فيها ، ذلك التعصب الذى لا يقوم
بشكل الارهاب الجماعى فى حوادث المنازعات ويحرم العمال الزنوج
من حق الانتماء الى النقابات والمشاركة فى مرافق الحياة الاجتماعية
والمساواة فى كسب الكفاية الفنية والصناعية فحسب ، وانما يحرمهم

حتى من حق المساواة أمام القانون (٣) .

وفيما عدا موضوع العنصرية ، على الوجه الذى عرضناه فى هذه الخلاصة ، والذى يرجع اليه ما أشيع فى الناس من نعرات التعصب التى لا تقوم على أساس فى العلم ، فإن موضوع التفاوت فى هيئات الناس لفت نظر علماء الحياة والانسان منذ زمان ، فجعلوه موضوع درس وتمحيص . وسنعرض فى الأقسام الآتية من هذا الفصل ، خلاصة دراساتهم بالكيفية التى عرضها « كنزبرك » (٤) ، فى أقسام ثلاثة : فنخصص القسم الأول لموضوع تعريف « الجنس » وتعدد أجناس البشر ، لنرى اذا كان لهذا التعدد وجود حقيقي . ونخصص القسم الثانى لموضوع التفاوت المفروض بين الأجناس من حيث صلته بالتكوين العقلى لنرى اذا كان هنالك تفاوت عقلى بين هذه الأجناس ، ومدى تأثير هذا التفاوت ، ان وجد ، فى التكوين الفكرى للامم والشعوب . ونعالج فى القسم الثالث موضوع الصلة بين تعدد الأجناس ونشوء الحضارة .

ويعترف علماء الانسان ، الجنس بأنه مجموع من الأفراد كبير ، يتميز عن غيره بخصائص جسمية موروثة . ولاجل أن تعتبر

(٣) راجع مقال Hans Kohn ، فى موضوع *Social Conflict*

فى دائرة معارف العلوم البريطانية .

(٤) Ginsberg ، الفصل الثالث .

خصائص الجنس من مميزاته ، فانها لا يقتضي أن تكون عامة فحسب
وانما يجب أن تبقى ثابتة على تعاقب الأجيال واختلاف البيئات . فقد
تبدو خصائص معينة في هيئة اعضاء عائلة ما ، يشترك فيها الوالدون
وأولادهما والاخوان وأخواتهم ، لكن هذه الخصائص لا تجعل العائلة
جنساً ؛ ومن ثم فان هذه الخصائص قد تظهر في جيل وعقبه ، لكنها
لا تثبت على تعاقب الأجيال .

وأول ما أوحى بفكرة تعدد الأجناس ، ظواهر الاختلاف بين
الاقوام ، فالتخذت هذه الظواهر أساساً للقول بتعدد أجناس البشر .
وأهم هذه الظواهر : أولاً ، لون البشرة والشعر والعون . وثانياً ،
شكل الشعر : المستقيم والناعم والأحجن أو المعقّق (wavy) والمجعد
(curly) والصوفاني (wooly) . وثالثاً ، شكل الرأس باعتبار نسبة
طوله الى عرضه : المستطيل والبيضوي والمستدير . ورابعاً ، القامة
وتناسق الأعضاء . وخامساً ، ملامح الوجه وتقاطيعه ، باعتبار شكل
الأنف والشفاه والجفون .

ولم يعتمد علماء الانسان في الغالب على صنف واحد من هذه
الظواهر الجسميّة في تصنيف الأجناس ، وانما اعتمدوا على تركيب
عدد منها . فصنف «بلومباخ» (Johann Friedrich Blumenbach)
أجناس البشر في خمسة وهي القوقاسي والمغولي والحشي والأمركي
(الأصلي) والملايى ، وذلك اعتماداً على لون البشرة وتقاطيع الوجه

وشكل الشعر والرأس • وصفها « هكسلي » في خمسة أجناس أيضاً هي : الأسترالى (الأصيلى) والزنجى والأصفر (Xanthochroic) والمغولى والأصفر ذو الشعر القاتم (Melanchroic) • وصفها « دنيكار » (Joseph Deniker) على الأساس عينه ، في سبعة عشر جنساً وتسعة وعشرين فرعاً • وصفها « روكارى » (Giuffrida Ruggeri) في ثمانية أجناس وثلاثة وأربعين فرعاً ؛ بينما اعتبر « هادون » (A.C. Haddon) الأجناس الأصلية ، ثلاثة منقسمة الى ستة وثلاثين فرعاً •

ومع أن اختلاف الآراء في تصنيف الأجناس على هذا الوجه ، يشير بذاته الشك في صحة الرأي القائل بتعدد أجناس البشر أصلاً ، فإن علماء الحيوان ، وتؤيدهم أغلبية علماء الانسان ، لم يقيم لديهم دليل يثبت قطعاً ، تعدد أجناس البشر • فالاختلافات الظاهرة بين أصناف الجنس البشري لا تقوم على قواعد ثابتة وأصلية • ففي جميع الأجناس المفروضة ، يجد المرء شذوذاً في عدد كبير من أفراد هذه الأجناس عن المميزات التى فرض أنها تميز جنساً عن آخر ؛ كأن نرى رأساً بيضوياً مع بشرة سوداء ، أو شفاها غليظة أو أنفاً أفطس مع بشرة بيضاء ، أو شعراً مستقيماً أو ناعماً أو معقّناً أو مجعداً أو صوفانياً مع بشرة أو تقاطيع وجه لا تنسجم معها مجتمعة على خلاف القاعدة المفروضة • بل ان هذه الخصائص المفروضة تبدو باغلب

مظاهرها فى كل جنس ، وفى حالات لا حصر لها ، فلون العيون أو شكل الشفاه أو الشعر مثلاً ، تكاد تختلف باختلاف الأفراد فى الجنس الواحد . وفى الواقع ان جمجمة لراس انسان لو قدمت لأخصائى ، استطاع ان يقطع بالجنس الذى تعود اليه . وبالرغم من أن العلماء حاولوا ان يتخذوا نماذج للأجناس ، لكنهم لم يجدوا فى الواقع من تجتمع فيه صفات نموذج لجنس من الأجناس ؛ بينما المعلوم فى علم الحيوان أن الوراثة فى الأجناس تسرى على نسق واحد فى الصفات التى تميز جنساً على آخر (٥) .

وقد لوحظ فى سجلات القياسات التى ضبطت فيها طول القامة منذ منتصف القرن الماضى ، أنه قد حصلت زيادة فى طول القامة بمعدل بوصة واحدة ، فى أغلب الشعوب الأوربية ؛ وتحقق أن أولاد المهاجرين الناشئين فى الولايات المتحدة يزدون آباءهم طولاً . وكذلك لوحظ ان شكل الأعضاء يتأثر فى الأفراد حسب مهمتهم والاضاع التى تفرضها هذه المهن على أعضائهم وأبدانهم ، فالحداد والموسيقى والعامل ، الذى يضطر أن يتخذ وضعاً جسيماً خاصاً بحكم عمله ، والذين يسرون حفاة ، كل هؤلاء تتحور اعضاءهم حسب طبيعة عملهم وحياتهم . وحتى شكل الرأس ، لوحظ أنه يتخذ فى الأبناء شكلاً يختلف عن شكل رؤوس آبائهم عندما يشأون فى بيئة تختلف عن

(٥) The Making of Man ، ص ١١٣ - ١٢٠ .

بيئتهم (٦) . ومع أن هذه التغيرات قد تبدو جزئية وتافهة بالنسبة لقصر الزمن الذى لوحظت فيه ، غير أنها ربما صلحت دليلا على تبدل الأشكال بتبدل البيئات وتغير الأحوال الصحية والمعيشية ، لو طال الزمن (٧) .

وحاول بعض علماء الانسان ، أن يدرس التفاوت بين أصناف البشر من ناحية قربها أو بعدها عن أسلافها الحيوانات ، فى الخصائص التى اتخذت أساسا للتفريق بينها . فبخصوص شكل الأنف مثلا ، على اعتبار أن الحيوان الذى تطور منه الانسان كان ذا أنف أفطس ، لوحظ أن الزنوج والأستراليين الأصليين أنوفاً أقرب اليه ، بينما المغول والأوروبيون يتعدون عنه بأنوفهم البارزة المستقيمة . أما بخصوص الشفاد مثلا ، فلوحظ العكس ، أي أن الأوروبيين بشفاههم الرفيعة يكونون أقرب اليه ، ومن ثم يليهم المغول ، بينما يتعد عنه الزنوج بشفاههم الغليظة البارزة . وبخصوص الشعر الذى ينبت على الجسم ، باعتبار أن الحيوان مشعر ، يكون الأستراليون الأصليون فالأوروبيون وشعوب آسية الغربية عموماً أقرب اليه بنسبة ما ينمو فى أجسامهم من الشعر ، بينما يكون الزنوج فالمغول أبعد عنه بأجسامهم الملساء التى لا ينبت فيها شعر .

(٦) Marret ، ص ٧٥ .

(٧) The Making of Man ، ص ١٣٢ - ١٢٣ .

وهكذا يظهر أن تقدم الانسان عن سلفه الحيوان لم يظهر في
أصناف البشر ، في خصائص موحدة تميزها بعضها عن بعض ، في
تدرجها عن الحيوانية ، وانما يظهر هذا الاختلاف على أساس
اختلاف الاختصاص الذي ألزمت به بحكم ظروف حياتها وبيئتها ؛
مثل اختصاص الزنجي في اللون القاتم وفي طول الساق بالنسبة
للجذع ، واختصاص المغولي بانعدام الشعر في جسمه ، واختصاص
سكان أوربه وآسية الغربية في درجات انكشاف اللون وانتصاب
الأنف واستقامته . وإذا ، فلا سبيل لتصنيف الأجناس على أساس
هذه الخصائص ، باعتبار تدرجها من الحيوان .

ودرس علماء الحيوان والانسان كذلك ، الفوارق بين أصناف
البشر ، من حيث وظائف الأعضاء ، باعتبار أن الفوارق بين الأجناس
في عالم الحيوان ، لا تقتصر على اختلاف ظواهر الأجسام وانما يجب
أن يرافق هذا الاختلاف ، بعض الاختلاف في وظائف الأعضاء بين
جنس آخر ، وتماثلا في هذه الوظائف في الجنس الواحد ، فانتهاوا
الى أن وظائف الأعضاء ، سواء الدماغ أو الحواس أو الأطراف أو
الغدد أو غيرها ، تؤدي في أصناف البشر الوظائف عينها وفي كيفية
واحدة ؛ ولم يجدوا في ذلك ما يدل على اختلاف أصلي بين البشر
يصح معه القول بانهم يختلفون في الجنس .

وعلى ذلك ، فإن القسم الأعظم من علماء الحيوان والانسان - إن

لم يكن جلهم - ممن محص موضوع الاختلاف بين أصناف البشر ، يرجع الانسان الى أصل واحد ، باعتبار ما يبدو من التشابه الواضح بين هذه الأصناف ، في تركيب الأعضاء ووظائفها وفي أعمال الدماغ ؛ وكذلك في قدرتها على التزاوج والتناسل فيما بينها ، بينما الثابت في علم الحيوان ، أن جنسين مختلفين يندر أن يتزاوجا أو يتناسلا ، وان تناسلا فان ذريتهما تفقد قابلية التناسل ، كما هو الحال في الخيل والحمير عندما تتناسل فتلد البغال العقم .

والعلة في الاختلاف الظاهر بين أصناف البشر ، انما مرجعها - في رأيهم - اختلاف البيئات وملاءمة الانسان لها حسب ناموس انتقاء الأصلح ، كما هو الحال في ملائمة الجنس الأسود للمناطق الحارة ، والأبيض للمناطق الباردة ، والأسمر أو الأصفر أو الأحمر للمناطق المعتدلة بحسب تفاوتها في درجة الاعتدال وفي المناخ بوجه عام (٨) . وتأثير البيئة عندما كان الانسان تحت تأثيرها المحض في حياته الهمجية - في مدى عشرات الألوف من السنين - تجلت الاختلافات المشهودة بين أجناس البشر ، في اختلاف شعر الرأس والعيون في الشكل واللون ، وفي اختلاف لون البشرة والقامة وتناسق الأعضاء وتقاطيع الوجه .

وقد درس العلماء موضوع « العنصرية » في ضوء الوضع الراهن

(٨) Marret ، ص ٨٣ - ٨٥ .

فى أوربة ، فافترضوا أن الشعوب الأوربية الحاضرة ترجع الى ثلاثة عناصر رئيسية ، عدا العنصر الذى قطن أصقاعها الجنوبية فى العصور الحجرية الأولى ولم يتوصل العلماء الى معرفة أصله .

وأول هذه العناصر ، العنصر الذى استوطن حوض البحر الأبيض المتوسط ، ويمتاز بالرأس البيضى والبشرة السمراء والشعر الأسود والعيون الغامقة اللون والقامة المعتدلة ، والذى وجدت بقايا حجاجه وآثاره فى فرنسا وبريطانية والمانية وبلاد السويد ، مما يدل على أنه استوطن فى أطراف هذه البلدان منذ قديم الزمان . ويقول « سرجى » انه يتألف من اربع شعب ؛ الأولى ، استقرت فى شمال أفريقية ، واليها يرجع قدماء المصريين والليبيين والبربر ؛ والثلاث الأخرى ، هاجرت الى أوربة عن طريق جبل طارق وصقلية وكريت وأرخيل بحر ايجه ، فاستوطنت اسبانية وايطالية وفرنسة وبلاد اليونان ، ومنها توافدت الى أطراف الشمال .

وثانيهما ، وهو العنصر « الكلتى » أو « الألبى » ويمتاز باستدارة الرأس واعتدال القامة وبدانتها ، وبعيونه الشهب وشعره الكستائى اللون . ويعتقد العلماء أنه « آري » هاجر من آسية ، فاستوطن سهول أواسط أوربة وانتشر فى مختلف أصقاعها ، مثل شمالى ايطالية وفرنسة وبلجيكة وجنوب المانية حتى بلغ السويد ، وهو الغالب فى بلاد النمسة وروسية .

أما العنصر الثالث ، فهو « النوردي » أو الشمالي ، ويمتاز بامتداد القامة واستطالة الرأس والوجه ، وباليون الزرق والشعر الأشقر . ويرى فريق من العلماء ، أنه نشأ في أوربة الشمالية . ويقول فريق آخر ، أنه يرجع في الأصل الى العنصرين الآري والكتتي . وهو الغالب في الأصقاع الشمالية الباردة ، لما له من المناعة ضد أمراض البرد .

ولقد ثبت الآن ان هذه العناصر ، حتى اذا صح أنها تختلف في الأصل ، فقد امتزجت خصائصها بحيث لم يبق في الامكان العثور على نموذج صادق لأي منها في انحاء القارة الأوربية كلها . ويرى القارئ فيما مرّ بيانه ، انها ترجع جميعاً الى شعوب جاءت في الأصل ، من أفريقية وآسية .

وخطأ التمييز بين العناصر المفروضة ، يتجلى لنا أيضاً ، عندما نمنع النظر في الحدود السياسية القائمة في أوربة الحالية ، في ضوء انتشار العناصر فيها وباعتبار اللغة مظهراً من مظاهر العنصرية ، كما يعتبرها فريق من العلماء . ففي شبه جزيرة ايبيرية مثلاً ، وسكانها أقرب الى النقاوة لأنهم أقرب الى العزلة بالنسبة الى أنحاء أوربة الأخرى ، نجد وحدتين سياسيتين هما اسبانية والبرتغال ، وأربع لغات هي البرتغالية والاسبانية والباسكية والقطلوونية ؛ ونجد جبال البرنة تشطر المتكلمين بالباسكية الى شطرين ، أحدهما فرنسي والاخر

اسباني * وفى أواسط أوربة ، نجد المتكلمين بالألمانية موزعين بين
ألمانية والنمسة وسويسرة وجيكوسلوفاكية وبولنده وإيطالية ، وهم
يختلفون اختلافاً كبيراً حسب فرضيات الجنس ؛ فالذين يقطنون جنوب
المانية وسويسرة والنمسة أقرب الى العنصرين الألبى والكلتى اللذين
ترجع اليهما الأقوام المتوطنة فى فرنسا وبوهمية وبولنده ، وصلتهم
بالعصر التيتونى أو النوردى ، الذى يرجع اليه سكان ألمانيا الشمالية ،
ربما تكون أوهى من صلة العناصر التى يتألف منها مواطنو الولايات
المتحدة ، بعضها ببعض .

وإذا ، فإن أخذ الوحدات الاجتماعية أو السياسية القائمة فى
أوربة الحاضرة باعتبارات العنصرية ، والاستدلال على ذلك باختلاف
الهيئات أو الاشكال أو باختلاف اللغات واللهجات ، أمر لا يقوم على
أساس من العلم ؛ لأن هذه المجتمعات والوحدات السياسية تقوم فى
الواقع على أساس المواطنة ، وهى رابطة جغرافية اقتصادية تاريخية
سياسية ولغوية ، وقد تكون دينية أيضاً ؛ وبها تقوم الرابطة القومية التى
لا صلة لها بوحدة الجنس ، وانما أساسها وحدة الثقافة التى ينشأ عنها
نسق فى التفكير والمشاعر والمثل يغلب على المجتمع ويميزه عن غيره .

ويعتقد الذين يرجعون المجتمع الى وحدة الجنس ، أن الأجناس
تختلف فى قابلياتها العقلية وفى ملكاتها الذهنية ، اختلافها فى مظاهر

أجسامها • وقد دقق علماء الانسان هذا الرأي ، فى ضوء القوائم التى سجلوا فيها معدلات حجوم الجماجم وزنة المنخ ، وكذلك دققوا تلافيف المنخ لمجموعات من مختلف أصناف البشر ، فكانت النتيجة أنهم لم يجدوا فيها ما يؤيد تمييز أصناف البشر فى القابليات العقلية وفى الملكات الذهنية والنفسية على أساس التفاوت فى حجم الجمجمة أو فى زنة المنخ أو تلافيفه •

فبينما استطاع « مارتين » (Rudolf Martin) ، أن يستخرج معدلات لحجم الجمجمة فى أصناف عديدة من البشر ، وأن يلاحظ تفاوتاً فيها بين معدل حجم الجمجمة فى شعوب أوربة وآسية الشرقية وجزر المحيطين الهادى والأطلسى من جهة ، ومعدل حجم جماجم بعض الأقوام المتأخرة مثل الأستراليين الأصليين والأندمانيين (Andaman) والفيديين (Veddhas) من جهة أخرى ، كما يتبين فى الجدول رقم (١) ؛ وكذلك أن ينظم غيره نسباً للتفاوت فى حجم الجماجم فى عدد من الأقوام ، كما يبدو فى الجدول رقم (٢) ؛ غير أن تدقيق الجداول التى أعدت لهذه الأغراض دلّ على أن لا ارتباط هنالك بين مقلّم الأقوام فى الحضارة والثقافة وبين التفاوت بينها فى حجم الجمجمة ، كما يظهر فى الجدول رقم (٣) ؛ ولقد لوحظ كذلك ان التفاوت كبير فى حجوم جماجم كل صنف من أصناف البشر ، وهو يتراوح ، كما يقول « مارتين » بين ١١٠٠ سم^٣ و ١٧٠٠ سم^٣ ،

واذا ، فلا مجال للتفريق بين الأقوام على أساس التفاوت في حجم جماجمها (٩) . وفي الواقع ، أن جمجمة لرأس انسان لو قدمت لأخصائي ، لما استطاع أن يقطع بالجنس الذي تعود اليه .

جدول رقم (١) لحجم الجمجمة بالسنتيمترات المكعبة

للرجال	للنساء	الاوربيون وسكان آسية الشرقية وجزر المحيطين الهادى والاطلسى والاميركيون
١٤٥٠	١٣٠٠	الفيديون
١٣٤٧	١١٨١	الانديمانيون
١٢٥٠	١١٣٩	الأوسترياليون الأصليون
١٢٨١	١١٤٨	

جدول رقم (٢)

النسبة المئوية للجماجم التى حجمها دون ١٢٠٠ سم ٣	اليوتنقونيون	الأوسترياليون الأصليون	الجرمان	الصينيون
٠/٠٥١	٠/٠٤٥	٠/٠٨	٠/٠٢	
النسبة المئوية للجماجم التى حجمها يزيد على ١٣٠٠ سم ٣	٠/٠١٦	٠/٠٢٨	٠/٠٧٥	٠/٠٩٢

جدول رقم (٣) لمعدل حجم الجمجمة بالسنتيمترات المكعبة

اسم القوم	معدل السعة بالسنتيمترات المكعبة
قبائل البكمى (Pygmy)	١٦٠٠
الجاويون	١٥٩٠
قبائل « الآما » (Ama)	١٥٧٠
« والزوما » (Xoma)	١٥٦٣
الأسكيمو	١٥٤٠
قبائل الكافر (Kafir)	

(٩) Ginsberg ، ص ٦٤

١٤٨٥	اليابانيون
١٤٧٤	العرب
	قبائل « الكلموك » (Kalmuk)
١٤٦٦	البدوية
١٤٥٦	الصينيون

وحاول علماء الانسان أن يستخلصوا شيئاً من تدقيق التفاوت بين الأقسام في زنة المخ . وبالرغم من تعسر الحصول على عدد كاف من النماذج في هذا الخصوص ، فقد أعد العالم الفرنسي « توبينار » (Paul Topinard) معدلات ، لعدد من الأقسام والشعوب ، كما يظهر في الجدول رقم (٤) ؛ ولكنه لاحظ في الوقت عينه تفاوتاً كبيراً بين أفراد كل قوم في زنة الدماغ ، فقد تراوح الوزن لزواج الولايات المتحدة الاميركية مثلاً بين ١٠١٣ غرام و ١٥٨٧ غرام ، ولليابانيين فيها بين ١٠٦٣ غرام و ١٧٩٠ غرام . ومع ذلك فقد أثبت التحقيق أن لاصلة مطلقاً بين زنة المخ ورقي الامة أو ثقافتها كما يتبين من الجدول رقم (٤) . وقد اشار « مارتين » في هذا الخصوص ، الى أن قبائل البشيرا* (Peschera) ، وهي قبائل همجية أقرب الى الحيوان منها الى الانسان ، يقرب معدل زنة المخ فيها من معدل زنته لدى الأوربيين .

جدول رقم (٤) لمعدل زنة المخ بالغرامات

١٤٢٨	الصينيون
١٣٨٠	قبائل البوريات
١٣٦٧	اليابانيون
١٣٤١	الآناميون
١٣٦١	الأوربيون
١٣١٦	زنوج اميركة الشمالية

* وهي من القبائل المغولية البدائية .

ومما يجب ملاحظته بخصوص هذه المقاييس والنسب والجداول جميعها ، أنها لأقوام ولشعوب لا لأجناس ؛ وإن المعدلات فيها مأخوذة من عدد محدود لا يتجاوز عشرات المئات في حين أن الاحكام التى تبنى عليها تخص عشرات الملايين من البشر . وبالرغم من ذلك كله ، لم ير فيها العلماء دليلاً يعزز الرأي القائل بوجود أجناس من البشر تتفاوت في قابلياتها العقلية وملكانتها الذهنية . ومما شجعهم على نبذ الرأي القائل باعتبار حجم الجمجمة وزنة المخ مقياساً للملكات والمواهب ، ما تبين لهم من ان كثيراً من جماجم الهمج وأدمغتها تفوق في حجمها وزنتها جماجم وأدمغة المفكرين وعظماء الرجال ؛ وكذلك ما ظهر لهم من انه اذا ما ضبطت النسبة بين زنة الجسم وحجمه وزنة المخ وحجم الجمجمة ، تضاءلت كل الفروق الظاهرة بين الناس في هذا الخصوص .

ودرس علماء الانسان كذلك ، مسألة التفاوت في دقة تلافيف المخ ، ومع أن عدد النماذج في هذا الخصوص أيضاً محدود كما هو في مسألة حجم الجمجمة وزنتها ، فقد لاحظ علماء الانسان أن التفاوت بين أصناف البشر ليس أقل من التفاوت بين أفراد الصنف الواحد . ولاحظوا كذلك أن جميع درجات التفاوت في تلافيف المخ موزعة بنسب تكاد تكون متساوية في كل قوم وشعب (١٠) .

(١٠) Ginsberg ، ص ٦٧ .

وتحرى علماء النفس درجة الصواب فى الرأى القائل بتفوق بعض الشعوب على غيرها فى قابليات الاحساس ، كالسمع والبصر والذوق والشم والشعور ، فلم يجدوا تفاوتاً حقيقياً فى هذا الشأن وإنما تبين لهم أن التفاوت الظاهر مرجعه الاعتياد والممارسة والتركيز ليس غير •

فقد أجريت فحوص لمجموع من الأتقوام ، اشتهرت بقوة النظر أو قوة الشم مثلاً ، وهى الأتقوام التى تمارس الصيد ، فاثبتت المقياس أن لا وجود للتفاوت بينها وبين غيرها ، وإنما تبين أن الذين يمارسون الصيد قد أكتسبوا بالممارسة ، القدرة على تعيين موقعه من بعد شاسع (١١) • ويقول « بوآز » (Franz Boas) أن الوراثة ان كان لها أعظم الأثر فى اختلاف أصناف البشر فى المظاهر الجسمانية ، فإن البيئة الطبيعية والمؤثرات الاجتماعية هى التى تؤثر فى كيفية تأدية الذهن والحواس وظائفها ، وإن الناس فى مجتمع معين يميلون تحت مؤثرات البيئة الواحدة ووحدة المؤثرات الاجتماعية الى التماثل بخصوص تأدية الذهن والحواس وظائفها (١٢) •

وقد درست مسألة الاختلاف المفروض بين الأجناس فى الذكاء والادراك ، بواسطة الفحوص الخاصة ، لمعرفة ما اذا كان التفاوت فى

(١١) The Making of Man ، ص ١٣٠

(١٢) المرجع عينه ، ص ١٣٢ - ١٣٣ •

الذكاء أصلي أم طارىء • ورجح علماء النفس ، أول الامر ، أن يكون الاختلاف أصلي ؛ ولكنهم رجعوا الآن عن رأيهم هذا ، بعد أن تبين لهم ان نتائج هذه الفحوص تتأثر تأثيراً أساسياً باختلاف ظروف الأفراد النفسية والبدنية ، وباختلاف السئات الطبيعية والاجتماعية وبطبيعة العمل الذى نشأوا عليه • وقد ثبت الآن أن نتائج فحوص الذكاء لا تتأثر بصحة الفرد وبغذائه وما يصيب من الراحة والنوم فحسب ، وانما هي تتأثر أيضاً بمفاهيم اللغة وأسلوب التعبير فيها وبالتقاليد والعادات وبطبيعة الحياة الاجتماعية ، مدنة أم ريفية ، زراعية أم صناعية ، علمية أم فنية ، وبمسائل أخرى لا تدخل تحت حصر • فاذا كان فى المستطاع ضبط الظروف الفردية فى هذا الخصوص ، فان من العسير جدا التغلب على العوامل الأخرى بحيث يكون فى الامكان التعويل على مقاييس الذكاء فى التمييز بين الشعوب ؛ خصوصاً وقد تبين أن أفراد الشعب الواحد يختلفون باعتبار الذكاء باختلاف المحلات والمدارس والأعمال ، وأن سكان القرى والأرياف فى كل شعب ، هم على العموم أبطأ فهماً وحركة من سكان المدن ، وأن البدوي أو الريفي الذى يظهر فى حياة البداوة أو الريف ذكاءً ممتازاً بالقياس لسكان المدينة تغلب عليه البلاهة والشروء فى أوساط المدن وشوارعها المزدحمة التى تموج بالحركة وتطنى فيها السرعة • واذاً فالذكاء يتصل اتصالاً وثيقاً بالوسط الطبيعى وبالعوامل الاجتماعية

والثقافة ، وليس من الصواب المقارنة بشأنه بين مجموعات من البشر
تختلف اختلافا كبيرا بالنسبة لهذه العوامل

وقد اعتاد المفكرون والكتاب ، منذ قديم الزمان ، أن يميزوا بين
الأجناس في السجاياء والطباع • ومع أن علم النفس لم يتقدم حتى
الآن في دراسة هذا الموضوع دراسة وافية ، إلا أن التناقض بين
الآراء في هذا الخصوص ، باختلاف الأشخاص والظروف والأزمان ،
يجعل من الصعب التعويل عليها ، لا سيما وأن هذه الآراء اعتمدت
في الأصل على ملاحظات عابرة لعدد محدود من الأفراد ومن ثم
اطلقت على أقوام قد يتجاوز عددها مئات الملايين • وقد تكون هذه
الآراء ، من جهة أخرى ، استخلصت من ملاحظة خليط من الأفراد
ولكنها اطلقت على جنس من البشر • فمن ذلك مثلا ، قول
« كين » (١٣) (E.R.E. Keane) في العنصر المغولي الذي يزيد عدد
نفوسه على ثلث سكان المعمورة ، بأنه يمتاز بالتكتم والحذر وبالحشونة
والشراسة والقتور وان وراء لطفه وتأدبه الظاهرين غرور وكبرياء ،
وأنه تغلب فيه روح المقامرة والمجازفة • بينما يقول « سليكمان » (١٤)
(Edwin R.A. Seligman) أنه يكفي المرء أن يلاحظ جماعة من
الحمالين الصينيين وهم يسعون للعمل ، أو جمهرة من الصينيين جمعتهم

(١٣) Ginsberg ، ص ٧١ •

(١٤) Outline of Modern Knowledge ، ص ٤٥٩ •

الصدقة ، أو عمالا اثناء العمل ، ليقنع بان الصينيين يفوقون أهل أوربة الشمالية فى سرعة الهياج وقوة العاطفة ، وان مظهرهم ليخالف على خط مستقيم ، الفكرة غير الممحصنة الشائعة عنهم بين الناس ، بانهم قوم جامدو العاطفة . وكثير من الكتاب قالوا ان شعوب البحر الأبيض المتوسط تمتاز بشدة الميل الى الالفه والاجتماع ، بينما يصف « ماداريكا » الكاتب الاسبانى قومه فى كتابه (*Englihmen, Frenchmen and Spaniards*) يقول « ان الاسبانى هو نقيض الاجتماع ، فاذا أراد الرفيق فانما يريد ان يتحسس حدود شخصيته بمجابهة الشخصيات الأخرى . انه لا يقصد الاجتماع وانما يقصد شخصيات الآخرين . وهذا هو منشأ الشعور الذى يحسه المرء بين جماعة من الاسبان ، وكأنه بين صخور صلبة جارحة . » . ومن ذلك أيضاً ، وصف الجرمان بأنهم « بطيئوا الانفعال محدودى التصور ، لكنهم أهل مثابرة وكدح واتقان وتمسك بالنظام . » ؟ وقد كان الرومان يرون أن البربرية من صفات الجرمان الاصلية وما دروا أنهم سيخرجون بعد حين أعظم رجال الفلسفة والفنون . وقال ابن سعيد المغربى ، أديب طليطلة يصف الأوربيين بان مزاجهم بارد ولا يبلغون الرشد ، وبان لهم ضخامة فى الجسم ولكنهم ينقصهم حدة الذكاء ورجاحة العقل^(١٥) . وكانت شعوب المانية حتى قبل قرن

(١٥) Haldane. ، ص ١٢٨ .

ونيف ، مضرب المثل فى الفردية والشقاق والنفرة من النظام ولكنها أصبحت بعد حين مضرب المثل فيما هو عكس ذلك • ولقد هزأ الأوربيون ، قبل ما يقرب من قرن ، بعزم اليابانيين على مجاراتهم فى حضارتهم الصناعية التى حسبوا أنها لا تأتلف وطباع شعوب الشرق ، ولكن نهضة اليابان الصناعية أصبحت بعد حين مضرب المثل فى مدى التقدم وسرعة الانجاز • ووصف « ربلي » (W. Repley) فى كتابه (The Races of Europe) ، الأقوام السلافية ، قبل ثورة أكتوبر ، بأنها صبورة غير فعالة ومحافظة مستسلمة ؛ بينما وصفها غيره ، بعد هذه الثورة ، بأنها ديمقراطية وتميل بطبيعتها الى الشيوعية • وقد زعم غلاة التيتونية ، أن جل المكتشفين والمخترعين من العنصر النوردى ، فأثبتت تحقيقات « ألس » (Havelock Elis) فى كتابه (A study of British Genius) ، أن أعظم رجال الانكليز ومكتشفهم كانوا من ذوى البشرة السمراء والشعر الأسود ؛ وكذلك ثبت أن قليلاً من مشاهير الأميركيين كانوا شقراً وأكثرهم من ذوى الرؤوس المستديرة ، بخلاف ما هو شائع من أن الفضل فى تأسيس الولايات المتحدة الأميركية وعمرانها يرجع الى النورديين ؛ وتحقق أيضاً أن أعظم مفكري الألمان ونوابغهم أمثال « لينتز » (Leibniz) (Freiherr Von) و « شوبنهاور » و « كانت » و « بتهوفن » (Ludwig Van Beethoven) و « شيلر » (Johann Schiller)

و « غوته » كانوا جميعاً أقرب الى الكلتين فى شكل الجمجمة منهم الى التيتون (١٦) .

وما يصح فى هذه الأحكام الخاصة بامزجة الأجناس وطبايعها ، يصح كذلك فى جميع الأحكام التى تصدر فى هذا الخصوص عن ميزات الأقوام بوجه عام . فقد حاول كثير من الكتاب أن يخصصوا الأقوام بامزجة أصلية ، مثل درجة تقبلها المؤثرات الخارجية ومبلغ نشاطها وحدة احساسها ، وتدرجوا من ذلك الى القول بان النظم والمنظمات فى كل مجتمع تتأثر بالمزاج القومي الذى يعطى التقاليد والأعمال العامة والسياسة القومية طابعها الخاص . ومن هذا القبيل القول بان الانكليز مثلاً ، يمتازون بالنشاط والابداع والاذعان الى القانون والاحساس بالمسؤولية وبالميل الى الاعتدال والمصالحة ؛ وأن الفرنسيين يتصفون بحدة الطبع وسرعة الخاطر وسعة الخيال والميل الى الألفة والاجتماع ؛ بينما أثبتت تحقيقات العلم بان فى كل أمة أصنافاً من الأمزجة لا تختلف باختلاف ضروب المعيشة ، كالحياة القروية أو الريفية أو حياة المدينة التى تغلب فيها التجارة أو الصناعة فحسب ، وانما هذه الأمزجة تتبدل بتطور المجتمع على مرور الزمان . وهكذا انتهى البحث فى هذا الخصوص الى نبد الرأي القائل باختلاف الشعوب فى الادراك والذكاء والاحساس والأمزجة اختلافاً

(١٦) Ginsberg ، ص ٩٠ .

أصلياً متصلاً باختلافهم في الجنس ، ورجح الرأي القائل بتأثر كل هذه الخصائص بالعوامل الجغرافية والاقتصادية والسياسية بوجه عام ، وهي تخضع لأحكام التطور فتجاريها المدارك والأمزجة والطباع في تطورها الدائم

ويؤدى بنا الفراغ من هذا الموضوع ، الى المسألة الثالثة ، وهي الأكثر خطورة . فأتنا حتى بعد أن نسلم بان الأجناس ترجع جميعها الى أصل واحد ، وأنها لا اختلاف أصلي بينها فى الملكات والأمزجة والطباع ، يبقى علينا أن نناقش مسألة التفاوت بين أصناف البشر فى القدرة على انشاء الحضارة ، فى ضوء الحقائق التاريخية وفى حدود الواقع .

فقد قسم البعض ، تفاوت الأقوام فى درجات الارتقاء وفى الثقافة باختلافها فى الملكات الطبيعية ؛ فقالوا ان الزنوج مثلاً ، ليس لهم استعداد طبعي لانشاء الحضارة . فهل لهذا الرأي أساس فى العلم ؟ يقول « كنزبرك » فى هذا الخصوص ، اتنا لو جابهنا أحد الرومانيين بالقول ان البرابرة الجرمان سوف يقومون الحضارة الأوربية بعد بضعة قرون وينجبون أعظم الفلاسفة والعلماء والفنانين والمخترعين ، لما وجد مثل هذا الرأي حقيقاً بالمناقشة أصلاً ، لأنه كان يعتقد أن الطبيعة لم تؤهل هؤلاء البرابرة لغير حياة البربرية .

ويقول « ويلز » (H. G. Wells.) « ان أي شخص بعيد النظر لو استعرض العالم في أوائل القرن السادس عشر ، لما رأى مفراً من القول بأنه لن تمض بضعة أجيال حتى تنتهي السيطرة على العالم الى المغول ويدين كله بدين الاسلام » (١٧) . ولهذا ، فليس ممتعاً كما يقول كنزبرك - ان يبلغ الزنوج مستوى الشعوب المتقدمة في الحضارة ، بعد بضعة قرون ، وهي ليست شيئاً يذكر في تاريخ البشرية . خصوصاً وقد ثبت الآن ، أنهم وسائر شعوب أفريقية ، لا يرجع تأخرهم الى اختلافهم اختلافاً أساسياً عن بقية أصناف البشر ، وإنما يرجع هذا التأخر الظاهر الى عزلتهم والى تعرضهم لأمراض مستوطنة تؤثر في الجهاز العصبي وفي قوى الادراك ولا تكسب المصاب بها مناعة ؛ وليس بعيداً ذلك اليوم الذي تباد فيه جرائم هذه الأمراض فيستأصل أثرها ، وتجد الحضارة طريقها الى مجاهل أفريقية فترفع شعوبها الى سوية بقية الشعوب وتفتح امامها ابواب التقدم والارتقاء

ويفسر البعض اندثار الحضارات باختلاط الأجناس المختارة بالأجناس المنحطة . ويقول « هوبهاوس » في كتابه (Development Social) انه لو صحت آراء الشاعر الاغريقي « هوريس » (Horace) الذي تطير من اختلاط الاغريق بغيرهم ورأى في ضياع

(١٧) Outline of History ، الجزء الثاني ، ص ٤٩١ .

نقاوة عنصرهم ضياعاً لمدينتهم ، اذاً لما وجدنا تفسيراً لبدوغهم أوج
التقدم فى أئينا ، عقيب ذلك ، بعد اتصالهم بالشعوب المحيطة بهم
وامتزاجهم بها (١٨) .

وتحقق لدى علماء الآثار أن اختلاط الأقسام الأوربية
وامتزاجها بعضها ببعض ، قد سبق بوادى الحضارة فى أوربة .
ويقول « كوردن تشايلد » ، ان الجماجم التى وجدت فى بلاد الدانمارك
وفى السويد - وهى ترجع الى الدور الحجرى الحديث - كانت خليطاً
من جميع الأشكال ، ونسبة الجماجم مستطيلة الشكل فيها ، التى
يمكن ان تنسب الى العنصر النوردى ، لا تزيد على ثلاثين بالمائة من
مجموع ما وجد (١٩) .

وأخذ البعض من أصول اللغة أساساً للتمييز بين الحضارات ،
وقالوا ان الشعوب التى ترجع فى لغتها الى الأصل « الهندى الأوربي »
هى التى انشأت الحضارة الأوربية ، وهى من شعوب الشمال . ومع
أن علماء الآثار لم يتحققوا من مواطن اللغة الأصلية التى اشتقت منها
لغات هذه الشعوب ، فرجح بعض الانكليز منهم ، أنها نشأت فى
الأصل ، فى هضاب جنوب روسية ؛ ورجح البعض الآخر ان
موطنها أوربة الوسطى حيث تقوم فى الوقت الحاضر ، بلاد النمسة

(١٨) Ginsberg ، ص

(١٩) المرجع عينه ، ص ٨٥ .

والمجر وبوهمية ؟ وقال آخرون أنها نشأت فى جهات من آسية ؟
فان « شريد ر » (Eberhard Schrader) رجح أن يكون الشعب
الذى وضع أصول هذه اللغة خليطاً من شتات من القبائل والأفراد
لا تربطهم وحدة العنصر (٢٠) .

وقال الذين يرجعون الحضارة الى أثر الأجناس « المختارة » ،
أن الفضل فى نشوء حضارتي الاغريق والرومان ، يعود الى العنصر
النوردى الذى اختلط بشعوب بلاد اليونان وايطالية + اما بخصوص
حضارة الاغريق فمما لا ريب فيه ، أن قسماً كبيراً من الفضل فى
قيامها يرجع الى ما اقتبس من الاغريق عن الايجيين ، وهم من شعوب
حوض البحر الأبيض المتوسط ؟ وقد ثبت أن شعوب الشمال لما احتلت
بلاد اليونان وجدت فيها شعباً متحضراً ، وقد أدى احتلالها الى أن تمر
البلاد بفترة مظلمة دامت بضعة قرون + أما الرومان ، فقد تحقق لدى
علماء الانسان ، أن سوادهم كان أول الأمر من شعوب حوض البحر
الأبيض المتوسط ذوى الرؤوس المستطيلة ، وأنهم غلب فيهم فى عهد
الامبراطورية ، العنصر الكلتى وهو ليس من النورديين على أية حال .
واذا أرجعت أصول الحضارة الأوربية الحاضرة الى الحضارات
التي نشأت فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، واعتبرت حضارة
الايجيين بدايتها ، فليس هنالك شك فى أن هذه الحضارة تبادل التأثير

(٢٠) المرجع عينه ، ص ٨٧ - ٨٨ .

مع حضارة السومريين فى « أور » وفى « كيش » ومع حضارة المصريين فى وادى النيل ؛ وليس هناك ما يدل على أن هاتين الحضارتين كانتا أصليتين ، فلم تتأثرا بحضارات الشرق الأخرى .

وعلى ذلك ، نستطيع أن نقرر : أولا ، أن لسر هنالك أساس علمي لتفسير الحضارة على أساس الجنس ، لأن تفسيراً مثل هذا ، يفترض حدوداً مميزة للأجناس البشرية فى حين أثبت العلم أن الجنس النقي لم يكن له وجود فى حياة الإنسان المعروف ؛ كما وأن هذا التفسير يلغى من حيث الأساس أثر البيئة الطبيعية والعوامل الاقتصادية فى تقويم المجتمع ؛ وهو أمر يناقض ما أثبتته العلم على وجه التحقيق . انما انه ليس هنالك دليل على أن أمة من الأمم ، استطاعت ، وهى فى عزلة عن الحضارة الانسانية ، أن تبدع حضارة أصلية ؛ وانما الواقع أن كل حضارة قامت نتيجة لتفاعل الثقافات الانسانية المختلفة ، وامتزاج المدينيات التى نشأت فى مختلف البيئات ؛ ولقد كان التأخر وما يزال مظهراً من مظاهر العزلة وتجنب الاختلاط . واذاً ، فالحضارة لم تكن ، فى زمن من الأزمان ، من صنع أمة واحدة أو من اختصاص قارة من دون القارات ، وانما هى من خلق الانسانية ، ساهمت فيها الشعوب فتناقلتها بالتقليد وبالاقتباس ، وأضاف إليها ما استطاعت أن تبدعه بدافع الحاجة وتأثير بيئتها الطبيعية وتحت ضغط العوامل التاريخية فى مختلف أطوار حياتها .